

# اللغة العربية تماشي الأمة العربية إلى الأمام لأنها جزء حي منها

## الأستاذ إلياس قنصل (عاصمة الأرجنتين)

الى تاريخها ، يريد ان يشوه معالمه الواضحة  
العالية ليزيل الاتصال بين الماضي والحاضر .  
الى نشئها ، يعني ان ييث فيه من الانفلات ما  
يذيب شخصيته المأولة .  
الى اقتصادها ، يرمي الى وقفه عند حد محدود ،  
فلا يتفاعل مع امكانيات النشاط .  
الى كل شيء .

وقد كان « اللغة العربية » نصيب وافر من تلك  
الحراب المصوبة التي تقطر بالسم الزعاف .

طلعت الدعوات العديدة تشير الى وجوب البحث  
في « تطوير » اللغة ، ولم يكن القصد لا التطوير ولا  
ما يشبه ذلك من بعيد أو قريب .

كان القصد ايجاد البلبلة في اجزاء الامة التي  
تتكلم هذه اللغة ، واحداث شكل من اشكال الفوضى  
قد يمتد الى عوامل لها علاقة وثيقة باللغة .

كان القصد منها - الى ذلك - شغل فئة من  
حملة الاقلام بالآخذ والرد والمباحكات والمناقشات  
البيزنطية ، وصرفهم عن اذكاء نيران الحماسة في  
النفوس لمحاربة الاستعمار .

لا نقول ان جميع الدعوات التي تعالت مطالبة  
بالاصلاح ، كانت من ابياء الاستعمار ، فقد تنزه بعضها ،  
عن ذلك ، ولكننا نقول ان معظمها كان مدفوعا من  
الاخطبوط المذكور .

والذي يراجع تاريخ هذه الدعوات يجد ظاهرة من  
اغرب الظواهر لا يمكن أن تكون من عمل الصدق :

كل سلاح وصل الى يد الاستعمار ، استعمله ،  
محاولا القضاء على القومية العربية .

انزل الاستعمار على المدن العربية قنابله ،  
ووجه الى صدور ابنائها رصاصه ، وهدم ، وخرّب ،  
وشرد ، واعتقل ، ما شاءت له مطامعه .

ثم حاول - وقد رأى ان بطشه المكشوف لم  
يجد - زعزعة اركان الوعي القومي العربي من الداخل ،  
فرشد الانصار ، وجند الاعوان ، واشترى الضمائر ،  
ولكنه على الرغم من ذلك ، لم يستطع الوصول الى ما  
يبغي ، فقد كان هؤلاء الانصار والاعوان من القلّة ،  
وكانت اليقظة الشعبية من الشمول ، بحيث اخفقت  
محاولاته ، ورأى نفسه كما رآه العالم ، متعثرا بأذيال  
الفشل ، لا يكاد يللم ذاته من حفره حتى يقع في حفرة  
ثانية .

واذا كان الخذلان قد اصابه في محاولاته ، فليس  
المعنى ان المعركة التي استهدفت لها الامة او بعبارة  
اصح ان المعارك التي ساقها اليها ، كانت معارك هينة  
لينة ، كلا ، لقد كانت جولات عنيفة ، تركت في جوانب  
الامة جراحا ضمدت بعضها ، ولا يزال بعضها ينزف  
بالدم ، الى الآن .

صوب الاستعمار حراجه الى سائر مقومات الامة  
العربية :

الى اخلاقها ، يريد ان ينفذ بالفجور الى  
مناعتها ، فينهار تماسكها .

كانت هذه الدعوات تطل برؤوسها عندما يشتد ضغط الشعب مطالباً بالحقوق المفضوبة .

ان هذه الدعوات لم تكن تظهر ابداً في فترات السكون السياسي ، والاستكانة القومية وهي الفترات التي كانت حرية بأن تظهر أثناءها ، لان هذا الاصلاح - اذا صح ان مرماه الاصلاح - يحتاج الى درس ، لا يتم الا تحت ظلال الاطمئنان .

قال هؤلاء فيما قالوا :

ان اللغة العربية فوق مستوى الجمهور ، وانها وقف على طبقة معينة من الامة ، وان هذا عيب من عيوبها ، تلافية ان تكتب بلغة الشعب بالعامية . . .

ولو تم لهم ما أرادوا ، لقصي القضاء المبرم على واسطة التفاهم بين الاقطار التي تضمها الفكرة العربية

لقد رأى هؤلاء ان اللغة العربية - في حالتها الحاضرة - تجمع السوري الى المراكشي ، كما تجمع المصري الى الويتي ، كما تجمع العراقي الى اللبناني حتى لا يكون بين المجتمعين اي فارق ، مهما كان ، فكان المقيم في أقصى القارة الاسيوية كالمقيم في ادنى القارة الافريقية .

راي هؤلاء المطالبون باصلاح اللغة ذلك ، فهالهم الامر الذي يكاد يكون منقطع النظير في ادوات التفاهم ، فعمدوا الى تفكيك هذه الوحدة ، وبرزوا بالنفمة « النشاز » : تحويل اللغة الفصحى الى العامية ، اي وضع حدود او شيء كالحودود بين اللهجات المختلفة بحيث يصعب التفاهم بين قطر وقطر ، واذا لم يصعب ، فلا اقل من ان يكون ثقيلاً .

ولو كانت نية هؤلاء ما قالوه ، لدعوا الى رفع العامية من مستواها الى المستوى الذي تتقرب فيه من الفصحى كما يفعل الزمن دون ان يشعروا ، فالاصلاح الحقيقي هو ان تنجبه الى الكمال ، لا ان تتحدر الى الناقص ، ومن البديهي الذي لا يكابر فيه ان الفصحى هي رمز الكمال ، لا العامية .

وقال هؤلاء فيما قالوا :

ان اللغة العربية ذات صرف معقد ونحو غامض ، وان الافكار تنصرف عنها لهذه الاسباب التي يستطاع ازالها بمحو جميع العقد منها ، وملاشاة الغموض ، اي بترك الحبل على الفارب ، لمن يشاء ، ويتحول الارباب فيها من قضايا منطقية ذات قواعد، الى مجموعة من عناصر التشويش التي لا يضبطها منطق ، ولا تنتظم

في قاعدة . وينسى هؤلاء او يتناسون ان جميع لغات الدنيا التي تتداولها المحافل المحترمة لا تخلو من قواعد وقياسات وانظمة وما اليها ، وان بعض اللغات التي يعتبرونها مثالية شواذ لا يقاس اليها ما في لغة الضاد .

وقالوا فيما قالوا :

ان الاحرف العربية في هندستها الراهنة ليست احرفا تماشي الحضارة التي بلفتها الدنيا ، وان الواجب يقضي باستبدالها بحروف فرنجية ، او بحروف لا هي بالفرنجية ، ولا هي بالعربية .

وما يرمون اليه من هذا الاقتراح واضح : انهم يرمون الى وضع حاجز بين الجيل الحاضر والتراث العربي القديم الخالد ، انهم يرمون الى القضاء دفعة واحدة، على ثمرات الفكر العربي في الاجيال الماضية وينسون او يتناسون ان التراث الفكري العربي القديم لا يشكل مفخرة من مفاخر العبقرية العربية فحسب ، ولكنه يصل الينا ، وهو خلاصة التجارب الفكرية في المدى العربي ، وهو عصارة الفلسفة العربية في نظرها الى الحياة ، والى ما في الحياة من مشاكل .

وقالوا فيما قالوا : اشياء كثيرة لا تخرج عن هذا النطاق ، ولكنها مفضوحة النيات ، مكشوفة المعامل .

لقد استطاعت اللغة العربية ان تعبر عن ادق الخواجج الانسانية ، وان تستوعب دقائق الفنون والعلوم في مختلف العصور الماضية ، فكيف تعجز الآن عن النهوض بهذه المسؤولية ، وقد سهلت امامها الوسائل التي لم تكن متوفرة في العصور الفائقة ؟ كيف تعجز الآن عن ذلك ، وقد تكشف للعلماء كثير من اسرار تراكيبها ومشتقاتها كانت مغلقة على الذين نقلوا اليها العلوم والآداب من الامم الغربية ؟

نحن لا ندعو الى الجمود .

انا نعرف ان تقدم الحضارة يتطلب ان ترافق اللغة ما يظهر من اختراعات ، ولكننا نعرف كذلك ان اللغة العربية في وسعها ان تجاري التقدم مجارة ليس بعدها زيادة لمستزيد ، فهي لغة لها اتساعها في مفرداتها ولها دقتها في جلاء اخفى ما تنطوي عليه النفس من شعور ، ولها غزارتها في منح ما يتطلبه الراءب في استيعاب مكنوناتها الدفينة ، ولها جمالها الذي لا يماثله اي جمال في اية لغة اخرى .

النتيجة الا ماشاء الحق ، وبقيت اللغة العربية في حصن حصين من مناعتها الطبيعية ، ولم تؤثر عليها هجمات الموتورين الحائقيين .

والقومية العربية تعرف ان اللغة احد الاسلحة الفعالة في درء الاخطار المخيفة بها ، وهي لذلك تحرص على سلامتها حرصا لا يمكن ان يتسرب اليه الوهن ، وهي لذلك تمر بالدعوات التي تبدو بين الحين والآخر مرور الاحتقار والامتهان ، لانها تدرك ان الداعين لا يضمرون لها الاخلاص ، ولو اضمروه لتوجهوا الى ايجاد الاصلاح الحقيقي ، لا الى هذه الحملات التي لم تعد تخدم احدا .

ان لغة الضاد التي رافقت امتها في جميع الادوار وانبعثت منها الطرائف الخالدة ستظل تمشي هذه الامة في مراحلها الى الامام لانها جزء حي منها .

ان اللغة العربية فيها « حياة » يكاد المرء يلمسها كما يلمس الحياة في الكائن الحي الانساني ، وهي ، الى انها اداة للتعبير والتفاهم ، آصرة من اواصر القومية كان لها عملها في الاحتفاظ بهذه الروح التي نجدتها الآن في العالم العربي .

والاستعمار لم يكن على خطأ ، حين وجد فيها ، قوة من قوى العروبة ، بقاؤها على جيورتها ، نذير له بان الوحدة العربية التي يخاف منها ، باقية الاصول ، ينميتها الزمن ، ويفذيها الجهد المخلص اربعمائة سنة او تزيد ، بقيت اللغة العربية تجابه الطغيان العثماني ، مجابهة ، خرجت منها فائزة منتصرة ، وارتد الطغيان مدحورا مكسورا .

وعادت قوى الشر التي حشدتها الاستعمار الحديث ، فشنت عليها الغارات المتواصلة ، ولم تكن